البعث تعبير عن افكار الجيل العربي الجديد

في الواقع لم يبق لي ما أقوله بعد كلام الرفاق إلا القليل[1] لأني وجدت أفكاري وخواطري متمثلة في ما ورد في هذه الجلسة من كلمات، وهذا في نظري وبالنسبة إليّ شيء مطمئن ومريح يؤكد شعوراً ليس بالجديد عندي وهو أنني أستطيع أن أطمئن إلى مستقبل الحزب، وإلى دوره الطليعي المستمر.

المهم أيها الرفاق هو أن نكون في مستوى الظرف التاريخي الذي يعيشه حزبنا وتعيشه أمتنا الآن. . أن ننظر بصفاء وموضوعية الى الحاضر والمستقبل. المهم أن نعترف بمشروعية الحاجة العميقة الملحة في حزبنا، وعند شعبنا الى التجديد، والى تجديد هذا الحزب بالذات، في فكره وتنظيمه ونضاله، لأنه ملك للأمة العربية وللمستقبل العربي، وليس ملكاً لفرد أو أفراد ولا حتى ملكاً لأعضائه المنتمين إليه. هو تعبير عن مصلحة شعب، وعن مستقبل أمة وحضارتها وعن مصلحة الانسانية إذا جاز القول. لأننا جزء أصيل وأساسي من الانسانية، شرط أن نحرص على المستقبل ـ فالمستقبل هو الأساس ـ وأن الماضي جزء من هذا المستقبل وصلته به وثيقة، وأن

نحن في ظرف تاريخي خطير يجابه حزبنا بتحدّ ليس كالتحديات، يخوض معركة ضد أعداء كثيرين ليس أقلهم شأناً ووزناً وخطراً، ذلك الاتجاه المشوّه الثورية، والذي غدا مزيفاً للثورة والثورية. وعلى حزب البعث العربي الاشتراكي أن يصمد في هذه المعركة، ولا يصمد إلّا بالعمل الايجابي، إلّا بالبناء، إلا بتحقيق الثورة، وبالسير دوماً الى الأمام. فمن هذه الزاوية وعلى هذا المستوى، وفي هذا

(١) كلمة في الجلسة الثانية في جلسات المؤتمر القومي السادس (مناقشة مقدمة التقرير العقائدي).

الجو، كلّ تجديد يحظى، أو يجب أن يحظى بالتأييد. فالثورة لاتستطيع أن تنتظر ولا أن تتجمد، والخطأ جائز ويمكن أن يُصلَحّ، ولكن الجمود هو الخطر الكبير الذي يجب أن نتحاشاه.

أيها الرفاق

في هذا البحث الفكري العقائدي، ومن خلال أقوالكم، ظهرت ملاحظات وانطباعات وتقديرات، هي صحيحة وعميقة وواقعية، إذا جُمعت بعضها الى بعض وتكاملت. فالحزب بحاجة الى تجديد، ولكن للحزب اسماً وماضياً وتاريخاً، ولا يمكن ولا يجوز أن يُبتر وأن يُنسى. كما أن لهذا الشعب الذي وجُد الحزب من أجله، اسماً وماضياً وتاريخاً. وإذا ظهرت في أقوال بعضكم بعض المخاوف فهي أيضاً مشروعة، ويجب أن ننظر إليها في تروّ وبجديّة ودون استخفاف. فبعض المنطلقات الفكرية قد تؤثر على شخصية الأمة نفسها، على وجود الأمة، وعلى وجود الشعب نفسه وعلى قوميته إذا لم ندقق ونتروّ في صحة ودقة هذه المنطلقات.

كذلك في بعض المنطلقات الفكرية، أو بالأصح كل منطلق فكري له نتائج عملية، أخلاقية، بالاضافة الى النتائج الاجتماعية والسياسية، وانه ينعكس على أسلوب العمل وعلى أخلاقية العمل. فالشيوعية لها أخلاقها الخاصة بها والذين تثقفوا بالماركسية لهم نظرتهم وسلوكهم المتأثر بهذه النظرية وهذه الفلسفة. . ولشتى الأنظمة أساليب في العمل والأخلاق خاصة بكل منها. وأمامنا نظام عبدالناصر الذي لم يعطِ في أعماله وممارساته، وفي علاقاته بالقوى التقدمية الثورية، ومن خلال أجهزة إعلامه، صورة صادقة ونموذجاً محبباً للأمة العربية وللمستقبل العربي.

كذلك أيها الرفاق لاتنسوا أن حزبنا عندما تأسس قبل ثلاث وعشرين سنة لم يظهر في الصحراء ولم يظهر من العدم وإنما وجُد في ظروف تاريخية، وجُد في بلاد معينة وفي زمن معين، تنمو فيه حركات وأحزاب عالمية، تصطرع فيها المذاهب الاجتماعية. وكان الذين بدأوا هذه الحركة، هذا الحزب، يتفاعلون مع معطيات تلك المرحلة، وهنا لابد أن أقول ما كنت دوماً أكرّره طوال تاريخ الحزب بأن هذه الحركة ـ حركة البعث ـ ليست من عمل فرد أو أفراد، هي صنع جيل عربي، حتى في

الفكر نفسه كان التفاعل مستمراً بين أعضاء هذا الحزب منذ بدايته. والفكر الذي سُجل في الأحاديث الحزبية وبعض الكتابات الحزبية لم يكن في الواقع اجتهاداً شخصياً، بقدر ما كان ترجمة لأفكار هذا الجيل. ولعلّكم تلاحظون في الكتابات ـ في كتاباتي أنا شخصياً ـ بأني ما استعملت قط ضمير المتكلم المفرد، وكل الكتابات تتكلم باسم الجيل العربي الثائر، وهذه حقيقة ظاهرة.

كنت أقول بأن هذا الحزب ظهر في زمن معين، في مكان معين، وظهر في وقت كانت فيه الشيوعية ترشحّ نفسها كحركة ثورية وحيدة في العالم، وفي البلاد العربية أيضاً. ومن البديهي أن أمة تعيش في مرحلة ثورية لا يمكن أن تنحاز أو تتبع الحركات الوطنية التقليدية التي كانت قائمة إذ ذاك، أو الحركات الدينية أو الحركات الاقليمية المصطنعة. . وكل ذلك التفكير السقيم المتخلّف الذي كان سائداً في ذلك الوقت والذي كان ينكر المشكلة الاجتماعية ويتجاهلها عمداً وتآمراً منه على مستقبل الأمة. . فكان من الطبيعي إذن أن تلقى الشيوعية التأييد، وأن تُعتبر المنقذ، مالم تظهر من أعماق الأمة العربية ومن صميم روحها ومصلحة شعبها والطبقات المحرومة منها، ما لم تظهر الفكرة، العقيدة، الحركة التي تعبرّ عن الحاجات الثورية الجديدة وتواجه الحركة الشيوعية بما يحفظ للأمة العربية شخصيتها وتوازنها ومستقبلها الحضاري، إذ لا حضارة مع التقليد والتبعية.

هذا ما حققته حركة البعث العربي أو ما استهدفت تحقيقه بظهورها، مدفوعة ومحمولة على سواعد الشباب العربي المناضل، كان ظهور الحزب إذن، بحدّ ذاته تحديد موقف من الشيوعية، موقف رفض، دون أن يكون هذا الموقف رفضاً أعمى أو رفضاً كلياً أو رفضاً سلبياً، لأن الذين وضعوا الأسس الأولى لهذا الحزب كانوا ممن درسوا الفكر الماركسي وأُعجبوا ببعض نواحيه وبكثير من نواحيه، وكانوا في الوقت نفسه أبناء زمنهم وأبناء بلدهم وأمتهم فلم يتجمدوا عند الصيغة الأولى للماركسية بل اطلّعوا وشاهدوا أكثر الاعتراضات التي وجُهت الى الماركسية سواء من ضمنها أو من الآخرين وشاهدوا واطلّعوا على الردود والتكذيبات العملية التي أتت بها الأحداث كدليل على خطأ أو نقص في التفكير الماركسي.

وكل ذلك ما كان يبدو كافياً، لو لم يكن لهؤلاء الأشخاص صلة صادقة بأرضهم وبشعبهم ساعدتهم كثيراً على أن يتحرّروا من التفكير النظري ويستلهموا الواقع الحي، فاهتدوا ببساطة وبعمق الى تلك الصيغة، وهي صيغة تاريخية، كما أعتقد وأؤمن، الصيغة التي مثّلت عقيدة البعث العربي، أي ذلك الترابط بين الثورة القومية والثورة الاشتراكية. . ذلك الاكتشاف الجديد لحقيقة القومية. فالقومية التي كانت رائجة وسائدة في ذلك الجو، لم تكن إيجابية في شيء، ولا جذابة في شيء، وفي هذا يكمن الخطر. . لأن الشباب العربي كان مهدّداً أن يكفر بها، وأن ينصرف إلى الشيوعية تخلصاً من ذلك الجمود ومن تلك المفاهيم البالية.

وكان من أهم أسباب ودوافع رفضنا للشيوعية، بالاضافة الى تجاهلها للعامل القومي، كان رفضنا لها بدافع النفور العميق، النفور العضوي، لأساليبها التطبيقية.

أيها الرفاق

قلت قبلاً بأن كثيراً مما كنت أريد قوله، سمعته منكم في هذه الجلسة. سمعت رفيقاً يسأل أين كان الشيوعيون في البلاد العربية وحتى في البلاد المتخلّفة والمناضلة ضد الاستعمار والتخلّف في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية؟؟ أين كان الشيوعيون والماركسيون أنفسهم عندما دعت الحاجة التاريخية الى التحرر من هذه الأمراض وهذه العقبات، عقبات الاستعمار والرأسمالية. . الخ؟؟ لم يقُم الشيوعيون بدور تاريخي في هذه البلدان. وفي الوطن العربي بصورة خاصة برهن الشيوعيون وبرهن الماركسيون على فشل في فهم الواقع، وهذه ليست حقيقة بسيطة نمرّ بها. صحيح اننا لانستطيع أن نتجمدّ عندها ونكتفي باجترارها والاعتداد بها إلى الأبد. ولكن من الصحيح أيضاً أنه لايجوز أن نغفلها لأنها بداية تدل على شيء كثير، تدل على حقيقة ساطعة. ولا يُعقل أن تفشل الشيوعية والماركسية في فهم الواقع من سنة ١٩٤٠ إلى ١٩٦٠ أو ١٩٦٣، ثم فجأة تصبح قادرة على فهم هذا الواقع. . وعندها نوليها ثقتنا التامة. كما وأن تفكير البعث يكون صالحاً لفهم هذا الواقع مدة عشرين سنة، ثم تفسد هذه الحاسة وهذه القدرة وتبطل. هذا شيء فيه تناقض.

وكما قال عديد من الرفاق، كان حزبنا منذ اليوم الأول لتأسيسه ولبدء عمله

الكثيرون من أفراده ـ لا فرد ولا اثنان ولا ثلاثة وربما الكثيرون ـ الذين انضموا إليه، كانوا مطلّعين على الأفكار الماركسية وكانوا ينظرون إليها بحرية تامة وبدون أية عقدة وبدون أي تحرّج، ولكنهم كانوا يعرفون مواقفها أيضاً ويتجنبون ما فيها من خطأ.

من أهم مميزات هذا الحزب، أن فكره كان دوماً فكراً حراً، فكراً منفتحاً وواقعياً، ومن الظلم وعدم الفهم اتهام الحزب بالمثالية الفكرية وبالخيالية وبالغيبيات وغير ذلك. في اللجنة العقائدية شعرت بهذا التجني على فكر الحزب وعلى تاريخ الحزب، فاعترضت دون أن أغمط واضعي التقرير حقهم فيه وجهدهم المشكور. ولكني استوضحت منهم أين وجدوا الأفكار المثالية والغيبية والقدرية وغير ذلك؟؟ . . أين وجدوا أن الحزب كان يتجنّب الصراع الطبقي؟ أين وجدوا أن أفكار الحزب فيها ما يوصل الى جعله وسيطاً بين الطبقات كما جاء في الصيغة الأولى للتقرير؟ . . أين وجدوا في أفكار الحزب ما ينفي التطوّر العلمي لمفهوم الأمة وأشياء من هذا القبيل؟ . . لقد أشرت إلى أن صيغة التقرير وضعت بتسرّع وبخفةّ، وربما بدوافع هذا الاستسهال، للطعن بماضي الحزب وبنضاله والذي، كما يبدو، قد أصبح مركباً سهلاً يتجرّأ عليه وينال منه أيُّ كان.

قلت للاخوان في اللجنة العقائدية، أن هذه الأفكار التي جاءت في التقرير، فيها الكثير من الصحة وفيها الكثير من النفع للحزب، وفيها أيضاً تجاهل لتراث الحزب وبتر لبعض جوانبه الايجابية، وفيها بعض الغربة عن جو الحزب وجو نشأته الأولى. أن يكون واضع أو واضعو التقرير العقائدي بعيدين نسبياً عن الحزب، هذا نقص، إلا أنهم في الوقت نفسه يمكن أن يبدوا ملاحظات قيّمة قد لايراها الذين يعيشون باستمرار في جو الحزب ويصعب عليهم أن يروا فيه أي نقص وأي خلل. فالنظرة من بعيد لها حسنات وهذا ما قدّرته في التقرير. ولكن النقص أيضاً يجب أن نشير إليه. لا أعلم إذا كان الحزب عاجزاً عن أن يضع هذه الدراسة من خلال تجربته الكاملة، وأن يضعها وأن يشترك فيها الذين عاشوا هذه التجربة. . ؟

وعلى أية حال، إنه لخطأ القفز الفجائي إلى أفكار ومبادىء وقيم دون التمهيد لها، ودون التوقف والتوسع بالمنطلق الأول للحزب، وفي المميزات التي تميزّ بها

حزبنا والتي كانت عاملاً أساسياً من عوامل بقائه واستمراره طوال هذه السنين، ونجاحه في جميع المعارك النضالية التي خاضها، لأنني لا أعرف أن حزبنا قد فشل في معركة من المعارك. وإذا ما ذُكرت وحدة ١٩٥٨ وذُكر حل الحزب كشيء سلبي في تاريخ حزبنا وخطا كبير، فأنا قد أوافق على أنه خطأ، ولكني في الوقت نفسه أقول بأن هذا الخطأ كان أعظم وأمجد من كل الأعمال الصائبة التي قام بها الحزب، وانه لم يكن خطأ بسيطاً ولم يكن مجرّد خطأ. إذ أن حزب البعث العربي الاشتراكي هو حزب للوطن العربي كله، وكان منتشراً في أقطار عديدة. . . والموافقة على حلّه اضطراراً في سورية أو في الجمهورية العربية المتحدة آنذاك، لم يكن يعني بشكل من الأشكال أن حزب البعث قد حُلّ وانتهى وجوده، بل كان ذلك اعتماداً على وجوده في الأقطار الأخرى. وانه بالتالي لايمكن أن يُحَلّ حزب البعث طالما انه موجود في العراق وفي الأردن وفي لبنان وفي شتى أقطار الوطن العربي، وهذا كفيل بارجاعه الى الجمهورية العربية المتحدة نفسها. لقد كان حلّ الحزب في ج.ع.م. مجرّد تسهيل لتحقيق عمل تاريخي، هو إقامة الوحدة بين قطري مصر وسورية آنذاك، وإذا كان الحزب جديراً بالحياة، وجديراً بفكرته ورسالته فلن يعجز عن إعادة تنظيمه.

إن بقاء حزبنا حتى هذا اليوم واجتماعنا في هذا المؤتمر ونجاح الثورة في العراق وفي سورية لدليل على أن ذلك الخطأ في عام ١٩٥٨ كان يتضمن أيضاً، إلى جانب الخطأ، رؤية واسعة ثاقبة عميقة، رؤية تاريخية. وان المستوى الذي ساهم حزبنا، عندما حقّق وحدة ١٩٥٨، في نقل النضال العربي إليه، قد عاد بالنفع على الحزب نفسه. وقد برهنت الأحداث على صحة ذلك. فالحزب الذي يقدّر الضرورة التاريخية لتحقيق بداية للوحدة العربية، لايمكن أن يستكين للانفصال. . لقد وقف المواقف المشرّفة وناضل النضال الأصيل، حتى قضى على الانفصال وحتى حقق الثورات واستلم الآن مسؤوليات تاريخية تجاه الشعب العربي كله.

أيها الرفاق

عندما نذكّر بماضي الحزب وبنشأة الحزب لانعني أن حزبنا في فكره وفي تنظيمه وحتى في نضاله، نضاله الصادق العنيد الدؤوب، لانعني أنه بلغ الكمال، بل

بالعكس، أنا أكثر الناس شعوراً بالفارق الكبير بين ما تمنيناه وبين ما تحقق. كنا وما نزال نتمنى مصيراً أعلى وأعظم لحزبنا. ومن ناحية الفكر أقول: بأن الفكر البعثي أصيل، ولكنه بحاجة الى توسيع وإلى تفصيل وإلى صياغة علمية تنقله من هذا الشكل العفوي الذي ظهر فيه ـ وأسباب ظهوره بهذا الشكل معروفة ـ فنشأة الحزب الطبيعية الصادقة جعلته مختلفاً عن الأحزاب التي تنشأ بعد مؤتمرات ونتيجة مقرّرات وتبادل آراء. أو تنشأ بعد كتابات تُكتَب في الغرف ووراء المكاتب. إن كل شيء كُتب أو قيل في هذا الحزب كُتب وقيل أثناء النضال، ولم نعرف في حزبنا كاتباً لم يكن مساهماً في النضال، لم نعرف مفكّراً إلّا كان في الوقت نفسه واحداً من المناضلين الذين دفعوا من راحتهم وراحة ذويهم ثمن كل كلمة قالوها أو كتبوها.

يجب أن نتذكّر دوماً ما هي الميزات الروحية والخلقية التي ساهمت في دعم نضال الحزب وصموده واستمراره. منذ بداية عملنا قبل عشرين سنة، ومن الأحاديث التي قيلت في بداية تأسيس الحزب والتي كانت في منتهى البساطة، لا صناعة فيها ولا براعة، حديث عن التفكير المجرّد. . لعلكّم تذكرونه. . كان هذا مستمدّاً من واقعنا ولم يكن ترفاً فكرياً وإنما كان يعبرّ عن واقع، ويعبّر عن حاجة، ويعبّر عن خطر، وعن مرض كان متفشياً. تعرّضنا فيه للثقافة المجرّدة، وقصدنا الثقافة الماركسية، بصورة خاصة، والثقافة الغربية بصورة عامة. منذ ذلك الحين كنا نصطدم بنوع من الثقافة غير المتفاعلة مع واقع بلادنا وشعبنا. . تبدو أنها مضبوطة، صحيحة، موضوعية، علمية، دقيقة. . الخ. ولكنها في المحك وفي التجربة تبدو أنها مغلوطة وفيها نقص خطير. في ذلك الحديث تحذير من الثقافة المجرّدة، والمثقفين المجرّدين الذين كانوا يجهلون كل شيء عن بلادهم وعن شعبهم وعن تاريخهم وتاريخ أمتهم، عن تقاليد شعبهم، عن جو الشعب. . ثم يؤسرون أسراً لنظريات غريبة يمكن أن يكون فيها فائدة عظمى لقضيتنا وقضية شعبنا إذا تناولها أناس مرتبطون بهذه الأرض وبمصلحة هذا الشعب. وتصبح هذه النظريات خطراً كبيراً إذا تسلّمها أشخاص فاقدون لهذه الصلة الحية بالأرض والشعب.

وهذا أيضاً جدير بأن نتذكّره اليوم خاصة واننا نشعر فعلاً بحاجتنا إلى مزيد من

الاستفادة، من الماركسية وغير الماركسية. والى جانب ذلك يجب أن نتذكّر الشروط الأساسية التي تقينا الوقوع في خطر التفكير المجرّد، وخاصة أن بيدنا مسؤوليات ضخمة، فالخطأ البسيط في مثل هذه الظروف قد تكون له نتائج سلبية مؤذية.

ليس من الأمور الكمالية، ليس من الأمور الثانوية أن نطلب من الذين يتسلّمون مقدرّات شعب وبلد أن يكونوا متصلين ومنغمسين بروح شعبهم وبتاريخه ولغته وآدابه، لأن في هذا ثروة نفسية روحية أخلاقية تعصم من كثير من المزالق وتدفع الى كثير من المواقف المشرّفة والبطولية والأعمال المجيدة. أما التفكير الذي لادم فيه ولا لحم ولا روح فهو تفكير خطر، تفكير لا إنساني. وميزة هذا الحزب أنه لم يأخذ القشرة السطحية من قضية الشعب، من قضية الأمة العربية، لم يأخذ فقط الناحية السياسية والناحية السياسية والناحية الاقتصادية والوحدة العربية وغير ذلك، وإنما تناول الانسان العربي، لأن الانسان العربي هو الأساس وهو البنّاء والمحقق لكل هذه الأهداف. . . الانسان العربي له روح وعاطفة وأخلاق وذاكرة وأواصر، وبالتالي كان الحزب على تواضع إنتاجه الفكري ـ وهذا مؤسف ـ لايقتصر على تناول النواحي السياسية والاجتماعية، وإنما كان يتعرضّ، ولوبغير إسهاب، لمشاكل الفرد العربي، الانسان العربي: تعرّض للدين وتعرّض للأخلاق وتعرّض للثقافة وللفن، وهذا مطلوب الآن أكثر من أي وقت مضى.

وهنا أريد أن أصحح قولاً سمعته ولم أقتنع به، قول أحد الرفاق، بأن الغموض الفكري في حزبنا كان سبباً للانشقاقات التي حصلت فيه! فما قول الرفيق في الانشقاقات التي لا نهاية لها التي حصلت وتحصل في الأحزاب الشيوعية والماركسية؟ فهل هذا نتيجة غموض فكري في الماركسية، أم أن هناك أسباباً وعوامل اخرى؟؟

أيها الرفاق

في اللجنة العقائدية حاول أحد الرفاق أن ينسب لي شيئاً من الادعاء عندما ذكر عن لساني اني قلت: أنا الذي وضعت أفكار الحزب أو عقيدة الحزب. والذي حصل، أيها الرفاق، أننا في اللجنة العقائدية، بعد أن قرأنا التقرير ورأينا بعض

الأفكار التي أشرت إليها الآن، أي اننا رأينا تزويراً وتحريفاً وابتعاداً عن الانصاف، قلت: أين توجد هذه الأفكار في الحزب؟. . أين هي الكتابات التي تستوجب مثل هذه الأحكام؟ لنأت بشواهد. . لنأت بأدلّة. أنا أعرف ما كتبت وأعرف أيضاً بأن الرفاق الحزبيين في استناداتهم العقائدية إنما يستندون إلى كتاباتي، من كتابات الأربعينات وما قبلها، الى الكتابات الأخيرة، وذكرت لكم أمثلة وشواهد: عناوين مقالات وبالتحديد عبارات في هذه المقالات ليس فيها ما يدلّ على تفكير مثالي وابتعاد عن النظرة العلمية وإنكار للتطور. بل على العكس، من المقالات الأولى هذه في سنة ١٩٤١ مقال معروف: «القومية العربية ليست لفظاً مجرداً بل هي حقيقة حية» وفيه تحطيم لكل تفكير مثالي أو إنكار وتنصلّ من كل تفكير مثالي. فبهذا المعرض ذكرت القول، وعندها سمعت أحد الرفاق يقول بأن المقصود هو الدستور، الذي عبرّ عن فكر الحزب والذي وردت فيه بعض الأحكام الغيبية. وعندها أجبت أن الدستور هو العمل الوحيد الجماعي في الحزب، من الناحية الفكرية طبعاً، وان عدة أطراف ونزعات قد أثّرت وسجلت أفكارها في هذا الدستور.

وختاماً، أيها الأخوة، أقول بأن الخط العقائدي أمر خطير لايجوز الاستخفاف به. هناك حاجة ماسّة في الحزب إلى بعض المنطلقات الفكرية وبعض التسهيلات التي تساعد الحزب على العمل، ولايجوز أن نتجاهل هذه الحاجة، ولا يجوز أن نتأخر في تلبيتها، ولكن لايجوز أن نتسرّع في بعض الأفكار الأساسية التي قد تهددّ قوميتنا بوجودها أو تهددّ أخلاقية الحزب.

١٢ تشرين الأول ١٩٦٣